المعلم

عاش الحداثة المظهرية بكل ألوانها الحربائية؛ بدءا من قَصَّات الشعر، مرورا بسراويل ضيقة وغريبة إلى لغة "لعياقة"!

درَس الأدب الفرنسي، اجتاز مباراةً لولوج مهنة التدريس، وَوُفِّق فيها. أنهى سنته التكوينية بمدرسة الأساتذة العليا بالرباط، ثم عُين بمنطقة جبلية بزاكورة. لم تكن بالمنطقة أبسط شروط العيش؛ لا إنارة، ولا شبكة تغطية، ولا دكاكين، ولا حلاق، ولا حماما، ولا صنبور ماء واحد...لا شيء سوى مسجد بسيط مبني بالطين، ومطلي بالجِبس، عششت في سقفه العناكب والسحالي. وكان ثمة عين ماء بعيدة، مما يلزمه بالذهاب إليها مرتين في اليوم. مرة حين يستيقظ في تمام العاشرة، وأخرى في المساء. يخرج بسروال قصير كـ"شورط". يحمل قارورتين فارغتين، ويستمع للموسيقى. يحسب نفسه، حين يضع سماعة الموسيقى في أذنه، أنه ما يزال في مدينة الأضواء. يخترق الأزقة الضيقة كالسهم، يلتقي ببعض الفتيات والنسوة، بعضهن يهرب، وفي أحسن الأحوال يجلسن في أمكنتهن، أو يضعن على وجوههن اللثام إلى أن يمر.

لا يفهم شيئا مما يحدث له! يستمر دون أن يدرك السبب. يمر برجال كهول لا شغل لهم سوى النميمة وتقصي أخبار المتزوجات والمتزوجين،

والمطلقات والمطلقين، والمسافرات والمسافرين، ومن صلى الفجر ومن كان على جنابة.

أتذكر ذات يوم، بعد أن صرت ملتزما وأصبحت أصلي، وقد تزوجت حينها، أنني غبت عن صلاة الفجر. وفي صلاة الظهر، بعد أن سلم الإمام، زحف "الحاج باسو" من مكانه نحوي قائلا: "لا شك أنك قضيتَ ليلة ماتعة مع زوجتك؛ فأنتما ما تزالان صغيرين، لذلك لم تشرفنا في المسجد في صلاة الفجر..

صمتت لبرهة، وقلت له: "بل كنت مريضا طول الليل. فأعين الحسّاد لا تترك لك المجال للاستمتاع".

أجاب "الحاج باسو" مستغربا: "وهل تؤدي عيون الحُسّاد؟" فأجبته: "أَولَست تحس بها حين تفوتك فريضة من فرائض الصلاة؟".

خرجت من المسجد نادما على توبتي. لا شك أن هناك خطأ في مفهوم المسلم! أوليس المسلم من سلم الناس من لسانه قبل أي شيء..؟

"الحاج باسو" وأصحابه لا شغل لهم. في الحقيقة، هم أهل المساجد. ولولاهم لغلِّقت أبواب كثير منها، هم من يسجِّل الحضور الدنيوي للعباد. لكن، ماذا يستفيدون من هذا كله؟ من يعوضهم على جهودهم؟

ربما خصص الرب للنمامين جائزة عظيمة غير التي نعرفها! إذ لا يعقل أن يكون الجزاءُ النارَ، ومحو الحسنات!

يصل المعلم إلى عين الماء، يجد فتيات طائشات من الدوار، ينظرن إليه بعد أن تركن له المجال ليملأ قاروراته. تذكر موسى والفتاتين اللتين استسقى لهما. لا مجال للمقارنة!

انتظر أن تعود إحداهن بعد أن غمز لهن لتجزيه أجر ما غمز. لكن دون جدوى. ولما قام من مقامه ليعود إلى أدراجه، سمع أصواتا تتعالى هنا وهناك: سنقتله، لن نرحمه، "كيخرج بالشورط"...

اِلتف حول صاحبِنا سبعة شبان ذوو بنية عظيمة. لا شك أن طعامهم التمرُ والماء! من هوْلِ الصّدمة، المفاجأةِ لم يعرف ماذا يقول! تلعثم كم مرة وجف ريق حلقه. عرق جبينه، أحس ببؤبؤي عينيه يغرقان دمعا. لم يتمالك نفسه، ألقى بالقارورتين، وانطلق بينهم كالسهم فارا يخترقهم. لم يستطع أحد أن يمسك به. شيء ما ساعده، وبقوة، على الفرار. يندفع جسده بقوة إلى الأمام كعداء كيني. وصل إلى بيته، أدخل المفتاح في القفل، عالَجَهُ وولج. وضع رأسه على الوسادة ثم استفاق من حلمه المرعب.